٦٧- سورة الملك

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرون من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه وعلق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

أستاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الأميرية بالقاهرة
١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

فهرست المطالب الكبرى فى هذا التفسير

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك ربّنا مُنزلَ القرآن ، بحقائقِ الإيمان ، وجليلِ العبر . ومُلْهمَ الأذهان ، نواصعَ البيان ، ودقيقَ النظر . ونصلى ونسلم على سيدنا محمدٍ المبعوث بأكرمِ الأديان ، وقاطعِ البرهان ، من ولد مضر . صلاة وسلاما يتجددان ما تجدد الزمان ، وتعاقب المَلَوَان ، ولاح قمر .

أمَّا بعد ، فإن جزأَىْ "عم" و "تبارك" من أكثر الأجزاء شيوعا بين طلاب المدارس ، وتداولا بين عامة المسلمين وأيدى صغارهم . وآياتهما أشد علوقا بالنفس ، وترديدا فى الأفواه من سائر آيات الكتاب . فمن ثَمَّ كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيرا حَسَنَ الوضع ، صحيحَ الأسلوب ، يَقْرُبُ من أذهانِ العامة ، ولا تنجافى عنه عقول الخاصة . فيُقتصر فيه من القولِ على ما يكشف الغموضَ عن الآياتِ من جهةِ اللغة والإعراب ، ثم يُشرح فيه المعنى المتبادِرُ شرحا وسَطا مجردا عن التنطع بالمشاغبات ، وإيراد الخِلافات والخرافات .

وقد وضع مولانا الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله — تفسيرا لجزء "عم" توخى فيه هذا النمط والأسلوب ، فجاءَ من خير الكتب وفاءً بالغرض ، وإصابة لمواضع الحاجة . فلا غرو إذا تناولته الألسنة بالثناء ، وتلقته القلوب بالقبول .

وقد رغب إلَيَّ بَعْضُ الفضلاء فى أثناء إقامتى بمصر بين سنتى ١٣٢٣ و ١٣٢٧ ﻫ (١٩٠٥–١٩٠٨ م) أن أضع تفسيرا لجزء "تبارك" أتوخى فيه طريقةَ أستاذنا الجليل فيما علَّقه على جزء "عَمَّ" من جهتى الصحة فى التعبير، والاقتصار على المفيد من القول، فقلت له: بلغنى أن الأستاذ رحمه الله قد فسر جزءَ "تبارك" وهو ما زال فى تساويدِ مبعثرةٍ محفوظةٍ عند صديقه المرحوم "حسن باشا عاصم".

وبعد البحث عن تلك التساويد، علمنا أن الأستاذ لم يشرع فى تفسير جزء "تبارك" بالفعل، وإنما كان هَيَّأَ صحائف بيضًا رَقَمَ فى رؤوسها آيات ذلك الجزء، وتركها غُفْلًا من الكتابة، على أمل أن يصطحبها معه فى بعض أسفاره، ويملأها تفسيرا وتعليقا، كما كان من أمره فى تفسير جزء "عم" الذى أَلَّفَهُ فى غُضُون سفره إلى البلادِ المغربية، لكنه اخترمته منيته، قبل أن تتحقق أُمْنِيَّتُه.

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارنى أو صادفنى سألنى عن التفسير وألح على بالشروع فيه. فكنت أعتذر إليه بنقص الكفاية، وصعوبةِ الأمر، وفقدِ الأداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر، ولا سيما أن تفسيرى لجزء "تبارك" لا ينظر إليه الناظرون لذاته، ومن حيث نسبتُه إلى صاحبه، وإنما تُتَعَمَّدُ فيه الموازنة بينه وبين ما كتبه الأستاذ على جزء "عم"، فينحطُّ قدره فى عيون القراء، ويُنْسَخُ ظلامه بالضياء، وبضدها تميز الأشياء..

ثم ضَرَب الدهر ضربانه ، فكان من أمره أن نزلتُ دمشق أول سِنِي الحرب الأولى نزولا حسبته لِماما ، فإذا هو قد استتلى شهورا وأعواما . فتجدَّدَتْ لى وأنا فيها دواعٍ حفزتنِي لتحقيقِ الأمل ، ومباشرة ما كُلِّفتُ من العمل . فوضعتُ هـذا التفسير مستعينا بحول الله وقوته ، وأكملته على مِثال تفسير شيخنا وطريقتهِ .

بيد أنى رأيت أن أتوسع قليلا فى التعليق والتفسير، والاستشهاد والتنظير — ولا سيما فى المباحث اللغوية — بأكثر مما فعله الأستاذ رحمه الله فى تفسير جزء "عم" مراعيا فى ذلك حال قُرَّاء جزء "تبارك" ، ومُقَدِّرا فى نفسى أنهم سيكونون أكبر سنّا ، وأتمّ استعدادا ، وأشَدّ اهتماما بالتحصيل من قرّاء جزء "عم" .

وقد قمت فى تفسيرى هذا بفعلِ ما أطيق وأملِك : من تحرّى الحق والصواب فيما أوّلت وفَسَّرت ، وبسطِ العبارة وتهذيبها فيما أنشأت وحرّرت ، وتصحيح النية وجَعْلِها خالصةً لوجهه الكريم فيما اخترت ورجحت .

أما قبولُه تعالى لعملِي ، وعفوُه عن قصورِى وزللِي ، ورواجُ تفسيرى بين القراء كما هو قصدِى وأملِي — فإن هذا لا أملكه ولا أطيقه بقوتِي ، ولا يدخل تحت مقدورى ومكنتِي ، وإنما أَكِلُ الأمر فيه إلى الله ، فهو المسئول أن يتولّاه بعنايته ، ويجعله قرين التوفيق بفضله وكفايته .

وأَحَقُّ ما تتقاضانى الذِمَّة إياه بعد أن ذكرتُ ما ذكرت — الاعترافُ بما تفضل على به كل من صاحبي الجلالة مليكي مصر العظيمين: فؤادٍ الأول (تغمده الله برحمته)، وفاروق الأول (كلأه الله بعينِ عنايته) من العطفِ على تفسيرى هذا ؛ فإنهما هما اللذان سَمَوا بِهِ ، وأَولياني الشَّرَفَ بسببه ، وتقرَّبا إلى الله بإظهار أمره ، وتمهيدِ الطريقِ إلى طبعه ونشرِه . كلّ هذا لِما وَقَرَ فى نفسيهما من حُبّ القرآن الكريم، والحِرْص على أَن تَعُمّ فائدته ، وتشمل المسلمين بركته .

فإن جلالة المليك الوالد لم يكد يُرفع إليه خبر هذا الكتاب حتى أَمر بإرساله إلى المشيخة الأزهرية للنظرِ فيه ، وكان ذلك فى عهد الشيخ الأحمدى الظواهرى (رحمه الله) . فأعادته (المشيخة) إلى القصرِ الملكى مصحوبا بتقرير اللجنة التى نظرت فيه ، وقد أبدت خمس ملاحظاتٍ أو ستّا كنتُ وافقت فى معظمها مذهب الاعتزال ، فرأيت أَن مثل هذه الملاحظات لا ينبغى أَن يقف سدًّا فى وجه التفسير ، ولا أن يحول بينه وبين انتفاع المسلمين به ، على اختلاف ثقافاتهم ، وتباين مشاربهم ، فعمدت إلى تلك الملاحظات فسوَّيْتُها بما وافق رأيَ اللجنة .

ثم فُجِعت البلاد المصرية بموت العاهل الوالد ، وخلفه المولود المبارك جلالة فاروقِ الأَول . فسُئِلَت المشيخة الأزهرية فى عهد شيخها الأستاذ (محمد مصطفى المراغى) عن خبر التفسير فأجابت بكتابٍ قالت فيه :

حضرة ... ... وبعد فإنى بحثت عن الأَدوار التى مرَّ بها تفسير (جزء تبارك) فعلمت أَنه حوِّل من مشيخة الأَزهر إلى لجنةٍ مؤلفةٍ من حضرات أَصحاب الفضيلة : الشيخ إبراهيم الجبالِى ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ محمد

عَرَفة ، وأَن اللجنة بعد قراءته أَبدت بعض الملاحظات ، وان هذه الملاحظات نقِّحت بمـا يتفق ورغبات اللجنة ، وبذلك أصبح التفسير سليما من المآخذ التى لوحظت أَولا ، وأَنه مرجوّ النفع به ؛ لمـا فيه من العناية بتقرير المسائل التى تمسّ إليها الحاجة ، ولِمـا هو عليه من سلامة الأسلوب ، وصفاءِ العبارة .

فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٣٦ شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغى

وقد عنيت وزارة المعارف المصرية بهذا التفسير ؛ وأحالته على لجنة من خيرة رجالهـا المختصين ، فراجعته ، وأشارت بطبعه ونشره ، تعميما لفائدته فى معاهد العلم المختلفة ، وبين جمهور المسلمين فى بقاع الأرض .

والله المسئول أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به ؛ فإنه الموفق إلى الخير ، والهـادى إلى سبيل الرشاد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

عبد القادر المغربى

سورة المــلك مكية

وهى ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١)

جميع سور هـذا الجزء أنزلت بمكة أى قبل الهجرة . ومن ثم كان الخطاب الإلهى فيها موجها إلى المشركين . وهو فى الأغلب يدور حول إثباتِ وجود الله تعالى والاستدلال عليه بما خلق من الكائنات ، ثم إثباتِ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه صادق فى دعوى الرسالة والوحى ، ثم تقريع المكذبين وتخويفهم ما بين أيديهم من هول الحشر والحساب ، وأن هذا الحشر ممكن وسيقع بالفعل ، فيلقى كل فريق من الجاحدين والمؤمنين جزاءه اللائق به ، فى داره المعدة له . ووصف هاتين الدارين وصفا بدعا فى أسلوبه ، عجيباً فى نسقه وتركيبه . ويتخلل الآياتِ تسليةُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه الشريف ، وحثه على الصبر والتجلد والتأسى بإخوانه الأنبياءِ الذين تقدموه ، ولقوا من أممهم مثل ما لقى أو أشدّ .

وقد افتتحت هذه السورة بتمجيد الله تعالى المالك لكل شيء ، والذى خلق البشر واختبرهم بإحيائهم وإماتتهم ، وخلق السمواتِ على نظام محكم ، وزينها بالنجوم ، كما جعل تلك النجوم من جهةٍ ثانية رجوما للشياطين الخ .

(تبارك) فى مادة البركة معنى الزيادةِ والنماء والدوام : فمعنى تبارك الله تعاظم وجلت صفاته ، وتعالى عن مشابهة المخلوقين تعاليا دائما لا يعتوره نقص ولا انقطاع .

(بيده الملك) أى أن التصرف المطلق فى هذه الكائنات له تعالى لا لغيره . ويراد من ذكر اليد فى مثل هذا الاستعمال إفادة معنى التمكن من الشيء والاستيلاء التام عليه .

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

﴿ ليبلوكم ﴾ أى ليختبركم ويمتحنكم .

استهل الكلام بأن له تعالى التصرف فى كل شيء والقدرة على كل شيء . ثم ذكر مثالا من أمثلة تصرفه وقدرته ، فقال : إنه تعالى قدّر على البشر موتا وحياة . والمراد بالموت الحالة التى يكون فيها الإنسان عناصر متفرقة ، لا حياة فيها ولا شعور . ثم بعد ذلك يسلط الله على تلك العناصر من نواميس قدرته ، المنطبقة على سابق مشيئته — ما يجعلها حية مدركة ذات إرادة واختيار . ولماذا هذا ؟ لأنه تعالى يريد أن يختبر الإنسان : أى يعامله معاملة المختبر المجرب ، فيَظهر أمرُه . ويُعرف مقدارُ طاعته وميله إلى الفضيلة ، ومبلغ عصيانه وجنوحه إلى الرذيلة . وإنما قلنا فى معنى الابتلاء هذا لأنه تعالى يعلم أمر الإنسان من دون اختبار ولكن الإنسان نفسه والناس لا يعلمون ذلك ، حتى إذا علموا حقت الكلمة ، وقامت الحجة ، وانقطعت المعاذير .

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم تلا هذه السورة فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أيكم أحسن عملا ﴾ فسره بقوله : " أيكم أحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعة الله " ، فالمفاضلة فى حسن العمل إنما هى فى أن يكون المؤمن أتم تعقلا لأوامر الله ، وتفهما لأسرار مشيئته فيما أوحاه إلى نبيه . فيورثه ذلك التفهمُ الكفَّ عن المحارم ، والمسابقة إلى ممارسة الطاعات . حتى إذا فرّط مفرط فى جنب الله وخالف أمره ، وتمادى فى غيه وضلاله — لا يعجزه تعالى أن يجازيه على سوء صنيعه ؛ لأنه تعالى ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلب ولا يسبق ، كما أنه تعالى ﴿ الغفور ﴾ الذى يعفو عمن تاب وأصلح وكف عن المحارم .

ثم إن للموت والحياة كنها يصعب تعقله على كل المخاطبين ، وليس فى طاقة معظمهم سهولة الانتقال منه إلى إثبات وجود الله تعالى . لذلك عدل الوحى الالهى إلى ما فيه يسر وسهولة عليهم ، وهو النظر فى هذه السموات المرئية ، وعجائب الصنع والتكوين فيها فقال ﴿ الذى خلق سبع سموات الخ ﴾ (١)

---

(١) هكذا يقول المؤلف فى بيان وجه الانتقال من ذكر الموت والحياة إلى ذكر طبقات السماء . ونرى أن ما ذكره لا يصلح وجها لذلك ؛ لأن الله تعالى حين يطالب الناس بالنظر فى أمر الموت والحياة لا يطلب منهم معرفة حقيقة يعجزون عن إدراكها ، بل يطلب منهم الاستدلال بتواردهما على الأجسام ، وهو ما يراه الناس جميعا ، ويعرفون من أمره بالحس ما يكفى فى الاستدلال ، وما لا يعرفون مثله من طبقات السماء ، التى لا يعرفها العلماء إلا بعد دراسة شاقة .

فالأمثل فى وجه الانتقال أنه بعد أن ذكر آية فى الانسان انتقل إلى ذكر آية فى الآفاق المحيطة به ، على حد قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » اهـ مصححه .

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

(طباقا) مصدر طابق النعل خصفها وجعل كل طَبَق منها حَذْوَ الطبق الذى يليه ، أو هو جمع طبقٍ كجَبلٍ وجبال ، أو جمع طبقة مثل رحبة بالتحريك وهى الساحة إذ يقال فى جمعها رحاب . (تفاوت) اختلاف واضطراب وخلل فى الخلقة (فارجع البصر) أى انظر مرة أخرى نظر متفحص متأمل ، فقد تكون نظرتك الأولى مجردة عن ذلك (فطور) جمع فطر ، وهو الشق والصدع فى الشىء . والمراد هنا الخلل وعدم التلاؤم بين أجزاء السموات (كرتين) مرتين . والمراد بالتثنية التكثير : كأنه يقول : ثم رد بصرك المرة بعد المرة ، بدليل السياق ، إذ يقول تعالى : (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) والبصر لا يكل بمجرد النظر مرتين اثنتين ، وإنما يكل ويتعب بترديد النظرات الكثيرة . وهذا مثل قولهم لبيك وسعديك ، فإن التثنية فيهما لإفادة التكثير [خاسئا] اسم فاعل من خسِئ بمعنى تباعد بذلة وصغار . ومنه قولهم للكلب : اخسأ ، فإذا تكررت النظرات ولم تجد خللا رجعت بعيدة عن نيل غرضها ، وإصابة ملتمسها : كأن عليها آثار الذلة والصغار [حسير] كليل مُعْيٍ من كثرة ما بحث عن الفطر والتفاوت فلم يجدهما .

هذه الآية مثالٌ ثانٍ من أمثلة سعة ملكه ، وشمول قدرته . ذكر فى صدر السورة أنه تعالى بث الحياة فى البشر بعد أن كانوا عناصر ميتة لا شعور فيها . ثم ذكر هنا من مظاهر القدرة أنه تعالى خلق سبع سموات يعلو بعضها بعضا ، وأنك لا ترى عند التأمل خللا فيها ، ولا تشاخسا [1] بين أجزائها . فحقق النظر إليها ، وتأمل تأمُّل متفحص هل تجد فيها خللا ؟ ثم إذا لم تطمئن للنظرة الأولى التى ربما كانت حمقاء فأعد نظراتك مرارا . فلا جَرَمَ أن يكل إذ ذاك بصرك ، ويخيب بحثك ، ولا تظفر بمطلوبك من وجود الخلل والفطر . والخطاب فى قوله (ما ترى) (فارجع) (ثم ارجع) لكل امرئ يتأتى منه الريب والشك فى مبلغ القدرة الإلهية ، لا لواحد بعينه . وقد أيدت تجارب العلماء الباحثين فى المادة ونواميسها ، والكائنات وسننها — مضمون هذه الآية ؛ فإنهم قرروا — بعد النظر الدقيق — أن العالم جميعه — من أصغر ذرة فى فضائه ، إلى أكبر جرم فى سمائه — خاضع لناموس واحد ، ومتماسك بنظام عام شامل : لا يمكن حصول خلل فيه ، ولا طروء شذوذٍ عليه ، إلا أن يشاء الله . فتبارك الله أحسن الخالقين .

(١) شخس الأمر كمنع وتشاخس : اضطرب وتفرق ، فهو شخيس .

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

والسموات السبع هى طرائق السيارات ومداراتها [١] . ولا ريب أن هذه المدارات طبقات : طبقة أدنى من طبقة ، وفلك فوق فلك . وإنما اقتصر الوحى من ذكر السموات على سبعة — مع أن العلم أثبت أنها أكثر من ذلك — لأنه تعالى إنما يخاطب القوم وقت البعثة بما عرفوا من أمر الأفلاك وكواكبها . وقد أحالهم على النظر والتأمل فى تكوينها وأوضاعها ، ليتنبهوا إلى كمال إحكامها ، وليحدث الخطاب فى نفوسهم عبرة وإذعانا وفضل تأثر ، وليكون ذلك آية لهم على وجود الله وكريم صفاته . وهذا هو جل القصد من ذكر السموات فى القرآن . وليس القصد من ذكرها تقرير حقائق فى علم الهيئة . وسكوت الوحى عن ذكر ما زاد على سبع السموات لا ينفى وجود الزيادة . والحكمة فى هذا السكوت أن المخاطبين فى ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير فى غير السموات السبع أو السيارات السبع التى عرفها الأوائل ، واشتهر أمرها عند عامة الناس يومئذ . أما النجوم الثوابت الأخر فلم يكن يتيسر لهم أو ينتظر منهم أن يرجعوا البصر فيها ليروا ما فيها من تفاوت أو إحكام ، وذلك لبعدها الشاسع عن متناول الحس ، وعدم معرفة الأوائل ما عرفه المتأخرون من طبائعها وأحوالها . وأما فلكا "أورانوس" و "نبتون" فلم يكونا اكتشفا بعد فى ذلك العهد ، فلو أحال الله البشر فى قرآنه على ما لم يمكنهم النظر فيه ، والإحاطة علما بأمره من النجوم الثوابت والفلكين المذكورين — لكانت إحالته عبثا ، وتكليفه محالا . وقد أبى الله سبحانه وتعالى لنا ذلك فى مُنَزَّل وحيه ، ومحكم شرعه ، تفضلا منه ورحمة . وسيأتى زيادة بيان لهذا البحث فى سورة نوح فانتظره .

﴿الدنيا﴾ تأنيث الأدنى ، وهى صفة للسماء ، أى السماء التى هى أقرب إلينا من سائر السموات . ﴿بمصابيح﴾ جمع مصباح ، وهو السراج . وقد أراد بها النجوم التى تضىء نواحى السماء على طريقة التمثيل . ونكَّر المصابيح تفخيما لشأنها ، وتعجيبا من أمرها ، وأنها قد بلغت من الإضاءة والجمال حدا دونه مصابيح الناس وسُرُجهم المعهودة .

ولا يقال إن معظم النجوم التى نراها فى السماء الدنيا هى نجوم ثوابت مقرها فوق السموات جميعها ، لأننا نقول : إن تلك النجوم الثوابت هى من كواكب السماء الدنيا وزينتها فى بادئ النظر ، وإن كان مركزها حيث ذكر ، فلا منافاة بين كونها فوق السموات وبين جعلها زينة للسماء الدنيا

(١) قال ابن سيده الأندلسى فى مخصصه (ج ١٦ ص ١٨١) ما نصه (والسماء والسماءة مدار النجوم) المؤلف .

وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

﴿رجوما للشياطين﴾ [الرجم] فى الأصل مصدر رجمه إذا رماه بنحو حجر، ثم سُمّى الشىء الذى يرجم به [رجما] تسمية بالمصدر، وجمع على [رجوم] مثل ما مر فى جمع فطر على فطور. و[الشياطين] طائفة من المخلوقات الشريرة. لانعرفها بأعيانها. وإنما نعرفها بآثارها. ومن جملة تلك الآثار خواطر السوء، ونزوع أنفسنا إلى الشرور. وهذه المخلوقات الغيبية هى ما يفهم فى الأعم الأغلب من إطلاق لفظ الشياطين. وإلا فإن الشيطان اسم لكل متمردٍ عاتٍ، سواء أكان إنسانا أم جنا أم دابة. ومن ذلك قوله تعالى: (وإذا خلوا إلى شياطينهم) أى رؤسائهم من الإنس. وفى الحديث "لا تُصَلوا فى مَبَارك الإبل، فإنها من الشياطين" قال بعض شراحه: إنها من الشياطين حقيقة؛ لأن الشيطان اسم لكل متمرد عاتٍ كما قلنا. وقال آخرون: إن الإبل تشبه شياطين الجن فى النفور والتهويش على المصلين.

﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أى وأعددنا لأولئك الشياطين عذابا تُسعر فيه النار، أى تُوقد أشد إيقاد.

ذكر فى الآية السابقة السموات وإحكام صنعها، وذكر هنا مافيها من النجوم المتلألئة، وقال إن تلك النجوم خلقت زينة للسماء ورجوما للشياطين. ولا ينافى هذا أن تكون النجوم خلقت لمصالح أُخر: ككونها علاماتٍ يهتدى بها المسافرون فى ظلمات البر والبحر؛ إذ ليس فى الآية مايستدعى الحصر.

ومعنى جعل النجوم رجوما أنها سبب للرجوم، ومصدر لها. وإلا فان النجوم أجرام كبيرة ثابتة فى مراكزها وتسمى ثوابت، أو متحركة فى أفلاكها وتسمى سيارات. ولايمكن حسبما عرف من السنن والنواميس التى قيّدها بها خالقها ومبدعها أن تدع مراكزها أو تخرج عن مداراتها وهى بحيث وصفنا من كبر الجم فتنبعث وراء الشياطين. وإنما تكون تلك النجوم منشأ للرجوم ومصدرا لها؛ فالرجوم وهى الشهب أجرام صغيرة مضيئة منفصلة عن النجوم وسابحة فى الفضاء، حتى إذا اقترب منها واحد من تلك الأرواح الشريرة المسماة شياطين انقضت عليه بهيئة شعلة نارية وأحرقته. ولا يقتصر فى التنكيل به على ذلك، بل قد هيئ له فى الآخرة (عذاب السعير) جزاء تصديه لاستراق خبر السماء.

ويقول العلماء المتأخرون فى سبب انقضاض هذه الرجوم المسماة فى اصطلاحهم "نيازك" إنها بعد انفصالها عن الأجرام السماوية بسبب من الأسباب تبقى سابحة فى الفضاء، حتى إذا

اتفق اقترابها من كوكب آخر أو من كوكبنا الأرضى ودخلت فى منطقة نفوذه — جذبها إليه بسرعة هائلة، فتحترق وتتلاشى هباء منثورا، أو تبقى منها بقية تسقط على سطح الأرض، وهى مايسمونه "الحجر النيزكى".

وما قلناه من أن الرجوم شهب منفصلة عن النجوم لا النجوم نفسها صرح به فى الكشاف قال: "ومعنى كون النجوم مراجم للشياطين أن الشهب التى تنقض لرمى المسترقة من الشياطين منفصلة من نار الكواكب لا أنهم يرجمون بالكواكب أنفسها لأنها قارة فى الفلك على حالها. وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نارٍ والنار ثابتة كاملة لا تنقض" اهـ

أو يقال: ليس المراد بالمصابيح التى زين الله بها السماء الدنيا النجوم أنفسها؛ بل المراد بها كل ما استنار فى أفق السماء بحيث تراه العين فى الليل الدامس متلألئا مضيئا كمصباح؛ فيدخل فى ذلك النجوم كما تدخل الشهب التى هى الرجوم؛ فقوله تعالى وجعلناها أى وجعلنا بعض تلك المصابيح أو نوعا منها وهو الشهب التى ترى فى السماء كمصابيح رجوما للشياطين.

ونحن معشر المسلمين نعتقد بظاهر ما ورد فى القرآن الكريم من أن النجوم قد ينفصل عنها رجوم تتبع الشياطين. وإذا لم يفهم العلم الطبيعى هذه القضية، فذلك لأنه لم تتوفر له أسباب الفهم اليوم. ويكفينا فى صحة الإيمان بها على ظاهرها أن العقل لايجعلها من المحالات العقلية.

ولبعضهم فى تأويل جعل النجوم رجوما للشياطين كلام جدير بالقبول وهو: أن الرجوم واحدها الرجم مصدر رجم وهو أن يتكلم المرء بالظن والتخمين. ومنه قوله تعالى (رجما بالغيب) فالرجوم هنا بمعنى الظنون، أما الشياطين فهم شياطين الإنس، أعنى المنجمين الذين اتخذوا من النظر فى نجوم السماء والتكهن عن أمور المستقبل بما يبدو لهم من طوالعها وقراناتها — صناعة لحمتها الرجم، وسداها الوهم؛ فالله تعالى يقول: إنه خلق النجوم فكانت زينة للسماء، أما الشياطين من الكهان فقد اتخذوها وسائل للتنجيم وإضلال الناس؛ فلا بدع إذا أعدت لهم النار يصلون سعيرها.

ومعنى كونه تعالى جعلها ظنونا للمنجمين أنّ ذلك كان من نتائج خلق النجوم، وقد حصل بإرادته، لا أنه تعالى شرعه ورضى به كما رضى بأن تكون النجوم زينة ومصابيح للسماء.

وسنزيد هذا البحث إيضاحا فى سورة الجن عند قوله تعالى: (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا).

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟
فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ

ربما أوهم قوله فى الآية السابقة (وأعتدنا لهم الخ) أنّ عذاب السعير ما أُعِدّ إلا للشياطين خاصة ، فنفى ذلك هنا بقوله ﴿ وللذين كفروا بربهم الخ ﴾ أى أنّ عذاب جهنم للكافرين جميعهم شياطين كانوا أو غير شياطين ، و﴿المصير﴾ المرجع والمآل : منْ صار أمره إلى كذا : آل إليه ورجع ، والمخصوص بالذم محذوف كأن يقول وبئس المصير عذاب جهنم ، و[الشهيق] الصوت الذى يتردد فى صدر المرء وهو يبكى ، ويخرج من الجوف بشدّة ، ولذلك يسمى نهيق الحمار شهيقا أيضا ، ﴿تفور﴾ تغلى كما تغلى القدر ﴿تميز﴾ أصله تتميز أى تتفرق أجزاؤها وتتقطع من شدّة غيظها وحنقها على أولئك الكافرين الذين أُلقوا فيها ، وهذا كما يقال فى وصف الحزين : "يكاد يتفطر قلبه من شدّة الحزن" والشهيق والغيظ جمعا فى آية واحدة فى سورة الفرقان فى وصف جهنم أيضا (إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيظا وزفيرا) و [الزفير] هو الشهيق أو قريب المعنى منه .

ومعنى الآيات أنّ أولئك الكافرين حينما يُلْقَون فى جهنم يسمعون لها صوتا شديدا وهى تغلى ، ويكاد الرائى لها من شدّة غليانها وحسيسها المنكر يحسبها غضبى على الكافرين بحيث يوشك أن تتقطع أوصالها من فرط غيظها عليهم ، وهل هذا الصوت صوت جهنم نفسها بمعنى أنّ الموادّ التى تلتهب فيها يسمع لها هذا الصوت ؟ أو هو صوت أهلها الذين أُلقوا ويُلْقون فيها ؟ لم يكلفنا الشرع تعيين أحد الأمرين ، كما لم يكلفنا أن نعرف جهنم نفسها والجنة وسائر شئون عالم الغيب معرفة كنهٍ وتحديد ، وإنما كل ما على المؤمن أن يعتقد أنه تعالى أعدّ دارا للأشرار تَسَعَّرُ فيها النار وتفور ويُسمع لها صوت على المعنى الذى يريده سبحانه وتعالى . أما ما وراء ذلك من اعتقاد أنّ مواد جهنم وعناصرها وطبائعها وغليانها وحسيسها من جنس ما نعرفه فى الدنيا أولا — فهذا مما لم نكلفه رحمة بنا ، إذ القصد أن يؤدّى علمنا بالنار إلى الخشية والازدجار وهذا يحصل بمجرّد ما قصه الله علينا من أمرها وأن الداخل إليها يشعر من الألم بأقصى ما يعهده فى دار الدنيا .

وأما أنّ الغيظ والغضب يكاد يقطع أوصال جهنم ، فهو تمثيل وتصوير لهول أمرها ، وفظاعة خطبها ، قلما يجهل حسنه من أوتى حظا من علم الأدب ، وتذوّق بشىء من خصائص لغة العرب .

كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ
جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾
وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ
فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

الكلام متصل بما قبله ، فبعد أن وصف دار العذاب جاء هنا يصف لنا أطوار المعذبين فيها، ﴿فوج﴾ جماعة من الجاحدين ، ﴿خزنتها﴾ هم الموكلون بها،ويسمون الزبانية ﴿نذير﴾ رسول من قبل الله ينذركم بطشه ، ويحذركم عقابه ، ﴿بلى﴾ حرف تصديق يقع بعد النفى فيفيد إثبات المنفى ، وفى الآية لم يكتف بما تفيده (بلى) من الإثبات ضمنا ، بل جىء به صراحة ، إذ قيل ﴿قد جاءنا نذير﴾ ولو لم يصرح به لفهم،و[الضلال الكبير] هو أن يَبْعُدَ المرء عن الحق بعدا شاسعا ومفعول ﴿نسمع أو نعقل﴾ محذوف أى ما كنا نسمع ولا نعقل كلام الرسل ولا إنذارهم ولا تحذيرهم والمراد بنفى السماع والعقل نفى الإجابة والتلبية ، لأن القوم لم يكونوا صما ولا مجانين ، وهذا الاستعمال شائع فى كلام العرب . قال شاعرهم :

دعوتُ اللهَ حتى خفت ألّا يكونَ اللهُ يسمعُ ما أقول

أى حتى خفت ألا يكون الله يريد إجابة دعائى، وتلبية ندائى ، و﴿السعير﴾ من أسماء جهنم وهو من سَعَرْتُ النار فهى مسعورة وسعير ، مثل مقتولة وقتيل ، أى أوقدتها إيقادا شديدا ، [سحقا] بعدا وهلاكا ، وهى من كلمات الدعاء والتقريع مثل تبا وجدعا ، ويقال فى ضدها سقيا ورعيا، وأصل معنى [سحقا له] أسحقه الله سحقا ، أى أبعده من رحمته إبعادا ، ومن السحق بمعنى البعد قولهم "مكان سحيق" أى بعيد و "نخلة سحوق" أى طويلة ، ومعنى الآيات أنه كلما أُلقى فى جهنم جماعة من المكذبين سألهم القائمون عليها سؤال توبيخ وتقريع : ألم يرسل الله إليكم رسولا ؟ فيقولون : بلى ! أرسله إلينا فكذبناه وأفرطنا فى التكذيب حتى جحدنا الوحى السماوى

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

وقلنا ما أنزل الله شيئا مما تدعونه أيها الرسل ، ثم ذهبنا فى الجحود والعناد والجرأة على الله كل مذهب ، فقلنا للرسل ﴿ إن أنتم ﴾ أى ما أنتم معشر الرسل إلا بعيدين عن الحق والصواب أشد بعد . ثم قال المسئولون لأولئك السائلين مقال النادم الآسف : لو كنا سمعنا كلام الرسل سماع إصغاء وقبول ، وعقلناه عن تفكر وتدبر — لكنا آمنا بهم و بالحق الذى جاءوا به ، وما كنا الآن فى عداد زوّار جهنم نقاسي حرها ونصلى سعيرها . ثم قال تعالى فانظر كيف اعترف هؤلاء القوم بذنوبهم فى وقت لا ينفعهم فيه الاعتراف . ومن كان هذا شأنه فى العناد ومقاومة الحق لا ينبغى الرأفة به ، ولا العطف عليه ، و إنما يحسن تقريعه وتوبيخه ، والدعاء عليه بالسحق والهلاك . و فى تكرير تلقيبهم بأصحاب السعير من النعى عليهم والهزء بهم مالا يخفى وقعه وحسن إيراده .

و إنما سألهم زبانية جهنم هذا السؤال وهو قولهم لهم (ألم يأتكم نذير) مع أنهم ربما كانوا عالمين بما كان منهم فى دار الدنيا — ليكون ذلك أشد نكايةً فى تعذيبهم ، وأكثر إيلاما لنفوسهم فإنه لا يُرمِضُ قلب المرء شىء مثل أن يقال له فى حين ظهور خطئه ، ومقاساته عاقبة ماجنته يداه : إنك أَنت الجانى على نفسك ، أنت الذى فرّطت بما تيسر لك من أسباب النجاة والسعادة فشقيت .

قلّما يصف القرآن ما أعده الله للمكذبين فى الدار الآخرة من أنواع العذاب إلا أتبعه بذكر ما أعدّه للمؤمنين من منازل الكرامة وصنوف النعيم ، وهذا هو معقد الاتصال بين هذه الآية ﴿إن الذين يخشون ربهم إلخ ﴾ وسابقتها ، على أن لها بها اتصالا آخر أدق وألطف : ذلك أن المكذبين لما وردوا جهنم ورأوا ماهالهم أمره من أحوالها ، وسئلوا عن سبب ورودها — أجابوا بأنهم كانوا يكذبون أقوال الرسل ، وينكرون الوحى وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد . وحجتهم فى ذلك أنهم يستبعدون وجود تلك الدار وهم لم يروها ، فمهما وضحت لهم صحة الرسالة وقامت القرائن على صدق الرسول فى دعواه اتخذوا عدم رؤيتهم لما بشّر وأنذر به من عالم الغيب والنشأة الثانية ذريعة إلى تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، وعدم الاعتداد بقوله ، فكان أمر الغيب أكبر عقبة فى طريق إيمانهم أما أولئك (الذين يخشون ربهم) أى يخافون عذابه ﴿بالغيب﴾ أى حال كون ذلك العذاب غائبا عنهم ولم يعاينوا منه أثراً — فإنهم جديرون بأن تكون ﴿لهم مغفرة﴾ وعفو من الله عن ذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ أى عظيم إذا قيس بلذائذ الدنيا الصغيرة الحقيرة .

وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

بعد أن أنذر تعالى المكذبين وبشر المصدّقين عاد فنبههم جميعاً إلى أنه عالم بما يكون منهم من إيمان وكفر ، ولا فرق عنده بين السر والجهر . والخطاب فى قوله : ﴿وأسروا قولكم﴾ — و إن كان موجهاً إلى الفريقين المصدّقين والمكذبين — كان سببه صادرا عن المكذبين وهم المشركون ؛ فإنهم كانوا يوصى بعضهم بعضاً بألا يجهروا بما يدور بينهم من الحديث ؛ لئلا يطلع عليه النبى صلى الله عليه وسلم . و [ذات] بمعنى صاحبة للمؤنث كما أن [ذو] بمعنى صاحب للمذكر . و إذا قال العرب "ذات الخدر" أرادوا المرأة صاحبة الخدر الملازمة له . وكذلك هم يريدون ﴿بذات الصدور﴾ الخواطر التى تلازم الصدور فلا تبرحها وتبقى مخفية فيها . و ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ يمكن تطبيقه فى الإعراب النحوى على وجهين : إما أن نجعل (من) فاعلا ليعلم : كأنه يقول : ألا يعلم الخالق ؟ ويصح أن يكون مفعولا به ليعلم ويكون فاعله ضميراً راجعاً إلى الله : كأنه يقول : ألا يعلم الله تعالى مخلوقاته ؟ و ﴿اللطيف﴾ فيه معنى الدقة وصغر الجم [لطف الشىء] صغر ودق حجمه ، فهو لطيف . وإذا وصف به ذو العلم والقدرة كان معناه أنه مطلع على الأمور الدقيقة التى قلما يُفطن لها . والله سبحانه وتعالى لطيف أى أنه عالم بدقائق شئون البشر مطلع على غوامض مصالحهم . وهو يسلك فى تمهيد طريقها بين أيديهم مسلك الرفق والرحمة . ولذلك يقولون : "هو لطيف بعباده ، وإن لطفه بعباده عجيب" يريدون عنايته تعالى بكشف الضر عنهم ، وإيصال الخير إليهم ، من حيث يخفى ذلك عليهم ، ولا يقع تحت مشاعرهم .

والآية على وجازة لفظها تتضمن قضايا ونتائج آخذ بعضها برقاب بعض ، فهو تعالى يقول للقوم المخاطبين: إنه لافرق عنده بين أن تسروا حديثكم بينكم أو تجهروا به وتسمعوه للملأ ، لأنه تعالى يعلم خواطر قلوبكم ، وما يدب من الأسرار فى صدوركم ، ولو لم تنوطوا بها أجراس الألفاظ فكيف لايعلم الألفاظ المهموس بها همسا ؟

ثم انتقل إلى الاحتجاج على من عساه ينكر أن يكون الله تعالى عالما بالضمائر ، وخفى السرائر ، فنبهه إلى أنه تعالى هو الذى خلق البشر وأوجدهم من العدم ، والخالق يعلم ألبتة ، كيف لا وعلمه قد نفذ إلى أسرار المعلومات ، وبطن غوامض الأمور ؟ . هذا إذا جعلنا (من خلق) فاعلا ليعلم . فإذا جعلناه مفعوله كان المعنى : كيف لا يعلم تعالى الهواجس التى تحيك فى نفوس البشر وهو الذى خلق هذه النفوس ومن كمال العلم بالشىء العلم بما يحتوى عليه ذلك الشىء ؟

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

بعد أن ذكر تعالى فى الآية السابقة أنه لطيف خبير ذكر هنا مثالا من أمثلة ذلك اللطف العجيب ؛ فهو تعالى خلق البشر ، وعلم دقائق طبائعهم ، وغوامض استعداداتهم ، فأمدهم من صنوف النعم بما يلائم حالهم ، ويسهل عليهم البقاء فى هذه الدار الدنيا . ألا يكون هذا الإمداد ، وذاك اللطف المشاهدة آثاره بأم العين — باعثا على خشية الخالق وتصديق رسله ، والإيمان بالغيب الذى أخبر به ؟؟

أصل [الذَّلول] الدابة اللينة السهلة الانقياد . مشتق من الذِّل بكسر الذال بمعنى اللين ، وهو ضدّ الصعوبة . والوصف منه ذلول . أما الذُّل بضم الذال فهو أن يهون أمر الرجل ، ويصغر شأنه بين الناس . وضده العز . والوصف منه ذليل . و[المناكب] جمع منكب على وزان مجلس وهو الناحية من كل شىء : فمناكب الأرض أطرافها وجوانبها . ومنكبا الرجل جانباه . والمنكب أيضا فى البعير والإنسان اسم للوضع الذى يلتقى فيه عظم عضده بكتفه . وهما منكبان ؛ فيحتمل أن يكون المراد بمناكب الأرض جبالها وآكامها ، وتكون سميت بذلك لشخوصها وارتفاعها كارتفاع المناكب فى الإنسان . وخص الجبال بالذكر فى قوله (فامشوا فى مناكبها) لإفادة أن الأرض غاية فى السهولة والانقياد للإنسان بحيث يتسنى له الانتفاع بوعورها وحزونها ، فكيف يكون مقدار انتفاعه بسهولها وأريافها المنبسطة ؟ يروى أن بشير بن كعب العدوى قرأ هذه الآية ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها﴾ فقال لجارية له : " إن دريت ما مناكبها فأنت حرة لوجه الله " فقالت : " مناكبها جبالها " فكأنما سُفِع فى وجهه ، أى كأن لاطما لطمه على وجهه ؛ خشية أن تكون الجارية أصابت فى تفسير المناكب ، فتعتق عليه ، وتخرج من ملكه ، وهو ضنين بها . فسأل ، فمن قائل عتقت ، ومن قائل لم تعتق . ثم سأل أبا الدرداء الصحابىّ الجليل رضى الله عنه ، فقال له : " إن الخير فى طمأنينة ، وإن الشر فى ريبة ، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك " ومعنى هذا أنّ خيرا للإنسان أن يكون فى حالة طمأنينة وهدوء نفس ، وأنّ شرا له أن يكون حاله على العكس ، وأن الجارية يحتمل أن تكون أصابت وأن تكون أخطأت ، فبقاؤها فى ملك سيدها مدرجة للشيطان بالوسوسة إلى نفسه ، فالأحسن له أن يعتقها ثم يتزوجها إن شاء

وشاءت هى . و ﴿ النشور ﴾ مصدر نَشَرَ الميتُ ينشر من باب دخل عاش بعد الموت . ومعنى كون النشور إلى الله أن البعث ومرجع الإنسان فى نشأته الأخرى إليه تعالى ، فليس من يحاسبه على أعماله سواه .

قلنا آنفا إن هذه الآية تتضمن مثالا من أمثلة لطفه تعالى بالبشر مذ جعل الأرض صالحة لسكناهم فيها ، على أن الآية ربما كانت مسوقة لتهديد المكذبين وتذكيرهم بأن من يسر لهم أسباب البقاء فى هذه الأرض قادر على سلبهم إياها ، فهو يقول لهم : احذروا هذا التمادى والتكذيب للرسل ومحاولة إخفاء سرائركم ، واذكروا أنه تعالى جعل لكم الأرض سهلة لينة منقادة انقياد الدابة الذلول ، فدعوا إذن العناد والتكذيب جانبا ، وحافظوا على هذه النعمة ، وامشوا فى الأرض مشى المستثمر المستفيد ، وانتفعوا بما هيأه لكم فيها من أنواع الرزق وأصناف القوت . ثم لا تركنوا إلى هذا العيش الهنىء ، فتستسلموا إلى أهوائكم ، ووساوس نفوسكم ، بل تيقنوا أنكم سوف ترجعون بعد النشور من قبوركم إلى الله ، فيحاسبكم وينتصف منكم .

وانقياد الأرض للإنسان ظاهر بالأكثر فى الأمم الحية التى عرفت كيف تنتفع بقوى نفوسها ومدارك عقولها الممنوحة لها من قِبَل العزة الإلهية . فهى لم تَدَعْ ضربا من ضروب الانتفاع بهذه الأرض إلا تناولته ، ولا طريقا من طرق الاستفادة من خيراتها إلا سلكته : حلّلت العناصر وركبتها . صهرت المعادن وطبعتها . عرفت طباع الحيوانات وسخرتها . فقهت خصائص النباتات واستنبتتها . اكتشفت نواميس المادة وأخضعتها . اكتنهت أسرار الكائنات واستخدمتها . غاصت فى أعماق الماء . طارت فى أجواز السماء . إذا اعترضتها شوامخ الجبال نادتها بالبخار من تحتها ، أو توقّلت بسلالم سكك الحديد من فوقها . وبالجملة فإن فى بلوغ البشر هذه الدرجة من الرقى مصداقا لامتنان البارى تعالى عليهم بجعل الأرض ذلولا لهم يمشون فى مناكبها ، ويأكلون من رزقها ، حتى يأتيهم اليوم المقدور ، ثم إلى الله يكون النشور .

وقد يقال فى تصوير كون الأرض ذلولا لنا معشر البشر أننا نعيش محمولين على ظهرها ، وهى تسير بنا الهوينا فى فلكها حول الشمس : لا تبطئ ولا تسرع بأكثر مما تستدعيه حال سكانها ، ولا تصادم نجما أو ذنبا لذوات الأذناب السابحة فى الفضاء . فكانت الأرض لنا نعمت المطية المدربة ، والذلول المجربة .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾

لحاق هذه الآية بما قبلها يؤيد أن الأولى واردة مورد التحذير والتهديد كما سبقت الإشارة إليه . و﴿من فى السماء﴾ هو الله تعالى . ولكن قام البرهان العقلى على أن الإله الأزلىّ خالق الكل ، وضابط الكل ، لا يتصور أن يكون مستقرا فى مكان . فوجب إذن صرف الآية عن ظاهرها ، وحملها على معنى يلتحم مع ما أثبته العقل ، وقام عليه البرهان . والقرآن يفسر بعضه بعضا : فآية (وهو الله فى السموات وفى الأرض) تنفى أن تكون ذات الله فى السموات وفى الأرض ، إذ كيف يعقل أن تكون الذات الواحدة فى مكانين فى آن واحد ؟ لا جرم أن يكون المراد بكونه تعالى فى السماء وفى الأرض أن مشيئته وحكمه نافذ فيهما ، وسلطانه وقهره غالب عليهما . والذى يساعد على هذا التأويل ما جرت به عادة البشر حتى الضالين منهم ؛ فإنهم ينتظرون وصول النعم إليهم . ويحذرون حلول النقم بهم من جانب السماء ؛ فهى قبلة خوفهم ، ومحراب رجائهم . وصاروا يفهمون من كون الله فى السماء عند الإطلاق أن السماء مصدر تصرفه ونفوذ مشيئته فى العالم .

وذهب أبو مسلم الأصفهانى[1] إلى أن العرب لما كانوا يقرون بوجود الله تعالى ويزعمون أنه فى السماء — خوطبوا فى الوحى على حسب اعتقادهم ، فقيل لهم : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ؟) أى أأمنتم أيها القوم ذاك الإله العظيم الذى تعتقدون أنه موجود فى السماء أن يهلككم ؟ هذا ما قاله أبو مسلم وهو دقيق جدا . وربما ورد فى القرآن أمور لم تذكر على جهة التقرير والتشريع وإرادة حمل المخاطبين على اعتقادها ، وإنما تذكر على سبيل الفرض ، وإرخاء العنان لهم فى اعتقادها اعتماداً على نصوص أخر بينت فساد هـذا الاعتقاد . وقد قال الإمام الشاطبى فى موافقاته : إن القرآن لا يذكر أمرا باطلا ما لم ينبّه على بطلانه وفساد أمره .

و[خَسَفَ] المكانُ خسوفا غاب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا غيبه فيها . و﴿ تمور ﴾ تضطرب وتتحرك بشدة حركة أفقيــة أى يمينا وشمالا وهى أشدّ حالات الخسف هولا وتخريبا .

(١) المتوفى سنة ٣٢٢ فى تفسيره المسمى (جامع التأويل لمحكم التنزيل) .

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾

وقوله ﴿أم أمنتم الخ﴾ إضراب عن التخويف الأول وهو الخسف بهم ، وانتقال إلى تخويف أقرب وقوعا ، وأكثر حصولا ، وهو إرسال الحاصب ، و[الحاصب] ريح شديدة تثير الحصباء. وهى الحصى . و[حَصَبْتُ الرجلَ] رميته بالحصباء . (ونذير) أصله نذيرى بياء المتكلم ، لكنها حذفت ليشابه الوقوف عليها بالسكون خواتيم الآيات المتقدمة عليها والمتأخرة عنها . ومعنى [نذيرى] انذارى ، وهو اسم مصدر لأنذر ، أما المصدر فهو الإنذار .

ذكرهم تعالى بنعمة صلاحية الأرض لمعيشتهم فيها ، ليبعث هذا التذكير فى نفوسهم فضل خشية ، وزيادة اتعاظ . ثم حذرهم عاقبة التمادى فى الجحود ،وأنه ليس من اللائق بهم أن يأمنوا زوال النعم عنهم ، ويذهلوا عن أن الذى أعطاهم هذه النعم وهوالله تعالى قادر على أن يسلبهم إياها ؛ فبعد أن تكون الأرض ذلولا صالحة للانتفاع بها . تصبح كالفرس الجموح ، أو البعير الصعب ، فلا يعود يمكنهم القرار عليها ، فترجف وتضطرب اضطراب خسف وزلزال وتبتلعهم . ولا ينتهى التنكيل بهم عند هذا الحد ، بل تأخذ بعد ابتلاعهم فى المور والاهتزاز الشديد ؛ فيكون هذا أدعى لتراكم الأنقاض عليهم ، وصعوبة خلاصهم والخلوص إليهم . وكأن المخاطبين استبعدوا وقوع الخسف بهم لقلة حدوثه ولا سيما فى جزيرة العرب ، فأضرب تعالى عن تهديدهم بالخسف إلى تهديدهم بعذاب آخر أقرب حصولا ، وأكثر حدوثاً فى جزيرتهم ، وهو إرسال ريح شديدة عليهم تحمل الحصى وصغار الحجارة وتصكهم بها صكا ، فتهلكهم وتستأصل شأفتهم .

ولما كان من المحتمل أن يبقوا على عنادهم وإصرارهم بحيث لا تنفعل نفوسهم للتخويف بالخسف والريح الحاصب أيضا سكت عن كل ذلك ، ثم أحالهم على المستقبل ، فإنه وحده الحكم فى هذه المسألة . وفيه يتبين أكان إنذار الله لهم وتهديده إياهم بالخسف والريح صادقا أو غير صادق . وهذا مغزى قوله تعالى : ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أى سوف يتجلى لكم أيها المكذبون الحق وصدق الإنذار إن بقيتم فى عتوكم وبعيد ضلالكم .

مهما ذكر رجال العلم الطبيعى للخسف والزلزال وهبوب الرياح الزعازع عللا وأسبابا ، فإن ذلك لا يمنع أن يهلك الله بها أقواما عصوا أمر الله وكذبوا رسله . فإذا هلك قوم بزلزال شديد وكانوا طغاة فاجرين نقول إن الله أهلكهم بالزلزال لسوء صنيعهم ، وقد نشأ الزلزال نفسه عن انفجار أبخرة وغازات كانت متجمعة فى تجاويف الأرض ، أو نشأ عن انخساف إحدى

وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

طبقات الأرض المكونة من صخور هشة رخوة ، فتداعت الطبقات العليا المتراصة فوقها ، فحدث الزلزال ، فتهدمت البيوت وهلك الناس .

ويمكن أن يتصور المرء هذه المسألة تصورا جليا بما نورده له من هذا المثال التاريخى ، وهو أن المنصور العباسى كان نقم من عم له خرج عليه ، وهو عبد الله بن على ، وأراد أن يقتله غيله لا كفاحا ، خشية غضب من شفع به من سائر عمومته ، فبنى له بيتاً جعل أساسه من قطع الملح وسجنه فيه أياما ، ثم سلط الماء على الملح فذاب وتداعى البناء وانقضت الجدران وخر السقف على الرجل فمات ، وأشاعوا أن موته كان بانهدام السجن عليه ؛ فالذى أهلكه هو المنصور العباسى ، لكنه توسل إلى غرضه بسقوط الحجارة الثقيلة عليه ، وتوسل إلى سقوطها بانحلال الملح من تحتها ، وتوسل إلى انحلال الملح بتأثير الماء فيه ، فإذا قال قائل إن الرجل مات لأسباب طبيعية حدثت فى أساس البناء يكون صادقا . وإذا قال آخر إن الرجل مات لأنه غاظ المنصور ومرق من طاعته فأهلكه يكون صادقاً أيضاً ، وهكذا نقول فيما ورد فى القرآن من أن الله تعالى أهلك الأمم الجاحدة بالريح أو الزلزال أو الطوفان أو انبثاق السد أو غير ذلك . ولله المثل الأعلى .

كان الخطاب فى الآيات السابقة للمشركين أنفسهم من عند قوله (وأسروا قولكم) إلى قوله (فستعلمون) ثم التفت فى هذه الآية : ﴿ ولقد كذب إلخ ﴾ إلى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم وتحديثه عن أولئك المشركين الذين كان يخاطبهم ، وتسليته بأنه سينالهم إذا بقوا على تكذيبهم ما نال مكذبى الأمم الذين كانوا قبلهم . و﴿ نكير ﴾ أصله نكيرى بياء المتكلم لكنها حذفت لموافقة رءوس الآيات الأخرى كما حذفت من (نذير) . و[النكير] اسم مصدر لتنكَّر تنكرا . ومعنى تنكر تغير : يقال تنكر الملك لوزيره إذا تغير قلبه عليه ، وتنكر الصديقان إذا تغيرا وانتقلا من حال تسر إلى أخرى تسوء ، وتنكر لى فلان لقينى لقاء بشعاً ؛ فمعنى التنكر قريب من معنى الحقد والسخط على شخص بعد الرضى عنه . ومن تَسَخَّط عليه تنتقم منه ، وتنزل به العقاب . فالتنكر فى جانب الله لايصح أن يراد منه انفعال النفس ، وإنما يراد به لازمه ، وهو الإهلاك وإنزال العذاب ، ومن ثم قال أبو مسلم الأصفهانى : النكير عقاب المنكر . وهكذا يقال فى مَكَرَ اللهُ بهم ، وغضب عليهم ، ورضى عنهم ، وضحك إليهم .

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى لا تأس يامحمد مما ترى من عقوق قومك وجحودهم وتكذيبهم لك ؛ فقد كان هذا دأب الأمم الذين قبلهم : كذبوا أنبياءهم ، وتمادوا فى غيهم وعنادهم ، فتنكَّرْتُ لهم ، وغضبت عليهم ، وأنزلت بهم العذاب . ولا تزال أخبارهم وهولُ ما لَقُوا متعالَمًا متداولا بينكم . فكيف كان تنكرى لهم ، وتغيرى عليهم ؟ أى فكيف كان غضبى عليهم ، وأخذى لهم ؟ ألم يكن غضباً شديدا ، وأخذاً وبيلا .

والآية لم تصرح باسم هؤلاء الأقوام الذين أخذهم الله بذنوبهم وجعلهم مثلا وعبرة لمشركى مكة . لكن قوله (فكيف كان نكير) يشعر بأن مانزل بأولئك الأقوام كان معروفا للخاطبين ؛ إذ كيف يسألهم عن خبر ماحل بهم ، ويطلب منهم المصادقة على هول ما أصابهم وهم لا يدرون من أمرهم شيئا ؟ فإذا لم نقل فى تعيين أولئك الأقوام الهالكين إنهم عاد وثمود أنفسهم نقول إنهم من أمم تعرفها العرب طغوا وبغوا فأخذهم الله بذنوبهم ، وأصبحوا عبرة للمعتبرين بهم .

كان المشركون يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم ارتيابا بقوله ، واستخفافا بما كان يوعدهم به ؛ فكانت الآيات تنزل تترى فى الاحتجاج عليهم ، وتسفيه آرائهم ، وحضهم على التصديق ، وتخويفهم العذاب إن هم أصروا وكابروا . وكان معظم السبب فى إصرارهم ونكولهم ظنهم أن لاشىء مما أوعدوا به يمكن أن يلحقهم . فاحتج عليهم سبحانه بما صنع بالأمم التى كانت قبلهم وقد كذبت فأهلكها . ثم أخذ فى هذه الآية ﴿أو لم يروا إلى الطير إلخ﴾ والتى تليها ينبه المشركين إلى شمول قدرته ، ويدعوهم إلى التفكير فى أنه تعالى قادر على إلحاق العذاب بهم ؛ فإن من عجائب قدرته ما يرونه فى كل وقت وآن من تحليق الطيور فوق رءوسهم ، واستعلائها فى طبقات الهواء ، مع أنها أجسام ضخمة كان من مقتضى النواميس الظاهرة للمادة أن تسقط على الأرض . ولكنه تعالى بباهر قدرته ، وعجيب صنعه وحكمته — خالف فى أجسام الطيور نواميس سائر الأجسام ذات الثقل ، وركب لها نواميس أخرى لائقة بها ، بحيث يمكنها معها أن تستعلى فى الهواء

من دون أن تسقط . من فعل هذا ؟ ومن أمسك هذه الأجرام الثقيلة ومنعها من السقوط ؟ ما أمسكها إلا الرحمن، الذى رحم هذه الحيوانات فيسر لها من وسائل الطيران والانتقال بسهولة من مكان إلى مكان — ما حفظ به نوعها ، وانتظمت به معيشتها ، واستمرت عليه حياتها . ولابدع ، فهو تعالى ﴿بكل شيء بصير﴾ ، يعطى كل شيء من خلقه القوى والسنن اللازمة له ، والمتوقف عليها بقاؤه . وقد ذكر علماء هذا العصر أن أكبر طير يعيش اليوم على وجه الأرض يسمى "الكندر" ثقله سبعة عشر رطلا ، والبعد بين جناحيه إذا صفهما أى بسطهما يبلغ عشرة أقدام .

والقصد من هذه الآية تنبيه المشركين المكذبين إلى عجيب قدرته تعالى ، وأن من له هذا التدبير فى تكوين خلقة الطير لا يعجزه أمرهم ، ولا يفوته بلوغ ما يريد من إنزال العذاب بهم .

بقى هنا شيء : وهو لماذا قال ﴿صافات ويقبضن﴾ ولم يقل [صافات قابضات] أو [يصففن ويقبضن] ، أى لماذا عبر عن الصف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

صف الطائر بسط جناحيه فى الجو وهو يطير ، وقبضهما إذا ضمهما وضرب بهما جنبيه . والأصل الذى يساعد الطير على الطيران إنما هو الصف وبسط الجناحين ، وإذا ضمهما أحيانا عاد فبسطهما للحال ، فهو لا يمكنه أن يبقى قابضا لهما وهو يطير ، بخلاف البسط ، فإنه يبقى ملازما له ساعات كثيرة ، فلما كان الأصل فى الطيران وهو الصف جيء به على صيغة الاسم ، فقيل (صافات) لإفادة أنّ الصف هو شأن الطيور الذى تثبت عليه ، وصيغة اسم الفاعل تفيد الدوام والاستمرار ، ولكنها "أى الطيور" فى بعض الأحيان يطرأ عليها وهى طائرة ما يدعوها إلى قبض جناحيها من حيث إنه يساعدها على البسط والتحريك . فلما كان القبض أمرا طارئا وعارضا فى الطيران جيء به فى الآية بلفظ الفعل المضارع الذى يفيد التكرر والتجدّد ، فقيل (يقبضن) ، ويكون مؤدّى المعنى هكذا : إنّ الطيور صافات ويكون منهن القبض تارة بعد تارة . أو يقال : إنّ النكتة فى التعبير عن القبض بالفعل المضارع هى تصوير الحالة لأذهان المخاطبين وزيادة تعجيبهم منها ، فإنهم حين نقول لهم انظروا إلى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجب حينما يقع فى نفوسهم أنها عند بسط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء من تحتها كما يدعم الأجسام الرقيقة المنبسطة فيه ، فإذا نبهناهم إلى أنّ الطير قد يقبض جناحيه فى أثناء الطيران

ولا يقع نكون قد زدنا فى عجبهم ، وهجنا من دهشتهم . والفعل المضارع بما فيه من معنى التجدّد والحدوث والزمن يساعد على تصوير الحالة وإحضارها فى ذهن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلك من تفطن لأساليب العرب ، وتأمل فى ملاحن كلامهم .

هـذا وإنّ طيران الطيور لم يزل من المشكلات التى لم يحلها العلم الحديث على طول باعه فى الاكتشافات ، والوقوف على أسرار خلقة الكائنات . وقد عدّوا من أبعد الأمور عن التعقل استمرارَ الطيور طائرة وأجنحتُها مصفوفة موازية للأفق وهى لا تتحرّك . وأعلن بعض علماء أوربا منذ سنين أنه اكتشف الناموس الذى به يتمكن الطائر من الطيران ، لكنه لم ينشر تفصيل ما عرفه من أمر هذا الناموس . غير أن العلماء اتفقوا على أنّ السبب فى استمرار الطيور طائرة يرجع إلى تقعر أجنحتها وتحدّبها وكونها غير مسطحة ، وعلى أساس هـذه النظرية بدأ النجاح فى طيران الإنسان ، وأخذ الطيارون يصنعون أجنحة طياراتهم على أوضاع تحكى أجنحة الطيور وأوضاعها .

ربما يخطر فى البال بعد طيران الإنسان أنّ طيران الطيور لم يعد محلا للعجب ، ولا دلالة فيه على القدرة التى أراد الله الاحتجاج بها على المشركين ، ولكنى أقول إنّ طيران الإنسان قد يكون أكثر دلالة على قدرة الله تعالى من طيران الطير ، ولو كان الإنسان قد اهتدى فى عصر النبوة إلى الطيران لَعَجَّبَ الوحىُ المشركين من تحليق الطيارة فى جوّ السماء ، كما عجبهم من سير الفلك على وجه الماء ، مذ عدّه نعمة على البشر ، وآية على قدرة الله . ولعمرى إنه لا فرق بين طيران الطير وطيران الإنسان فى أنّ كلا منهما أثر من آثار قدرة الله ، وعجيب صنعه فى خلقه : طار الطائر بقوى ونواميس كامنة فى تركيب جسمه وهى من الله ، وطار الإنسان بقوى عقله وعلمه ودقة ملاحظته ونواميس المادّة التى استخدمها فى الوصول إلى غرضه ، وكل هـذه القوى والنواميس لم يكتسبها بجهده ، ولم يأت بها من بيت أبيه وجده ، ولا من عالم آخر غير عالمنا ، مخلوق لإله آخر غير إلهنا ، وإنما كل تلك النواميس والقوى والمواهب نعمة من الله ، وفيض من روح الله ، آمنا بالله وما أنزل إلينا من عند الله .

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ج

قوله ﴿أمن هذا الذى الخ﴾ مقابل لقوله قبله (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات) كأنه يقول أو لم ينظروا إلى عجيب صنع الله فى خلق الطير فيعرفوا مبلغ قدرته تعالى على إنزال العذاب بهم أم إنهم تعاموا عن ذلك اعتدادا بأن لهم من غير الله قوة تحميهم إن أراد إهلاكهم ، وترزقهم إن أمسك الرزق عنهم ؛ فالقوة الحامية لهم فى زعمهم هى جندهم وسلاحهم ، والقوة الرازقة هى آلهتهم وأصنامهم ، وهذا هو شأن المشركين فى زمن البعثة : كان صلى الله عليه وسلم إذا خوفهم البطشة الكبرى ذكروا له من منعتهم ، ونصرة جندهم . و إذا حذرهم القحط وأنه تعالى قادر على أن يحبس عنهم المطر ويمنع وسائل الرزق — أظهروا التجلد والاستغناء ، وزعموا أن أصنامهم تمدهم من صنوف الرزق بما شاءوا . فو بخهم الله على الأمرين ، وأبطل لهم كلا الزعمين : فلا الأعوان الذين لديهم بقادرين على أن يحموهم إن أراد هو إهلاكهم ، ولا الأصنام التى يعبدونها بالتى يمكنها أن ترزقهم إذا أراد إمساك الرزق عنهم .

والإشارة إلى الجند والأوثان بكلمة (هذا) الدالة على القرب مما يفيد فى هذا المقام تحقير المشار إليهم وانحطاط شأنهم ، كما أن التعبير بذلك الدال على البعد يفيد التعظيم ورفعة الشأن أحيانا نحو قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه) .

والجند العسكر والأعوان : معناه جمع ولفظه مفرد . وقوله فى صفته ﴿ينصركم﴾ مراعى فيه جانب اللفظ لا المعنى . وكلمة ﴿دون﴾ مقلوبة فى الأصل عن [دنو] ومعناه القرب . استعملت فى المكان القريب . ومن كان فى مكان قريب منك كان بالضرورة مغايرا لك . ومن ثم كثر استعمال دون أيضا بمعنى " غير " ؛ فمعنى من ينصركم ﴿من دون الرحمن﴾ من يقدر أن ينصركم نصرا واصلا إليكم من غير الرحمن . ويمكن أن نبقى (دون) على معناها الأصلى وهو المكان القريب ، ويكون حل المعنى هكذا : من يمكنه أن يمدكم بالنصر من مكان قريب من الله . ولا ريب أن كل الأمكنة قريبة منه تعالى : أى إنه تعالى عالم بالأمكنة وبمن حل فيها . وليس اقترابه منها كاقتراب بعض الأجسام من بعض ؛ فكل أحد إذن عاجز عن نصرة المشركين لأن الله ناظر إلى من ينصرهم عن كثب متمكن من قهره آخذ بناصيته .

والاستفهام فى قوله (أمن هذا الخ) ينتهى عند قوله (الرحمن) .

إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ
رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ
أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾

وقوله ﴿إن الكافرون إلا فى غرور﴾ بمنزلة الجواب لذلك الاستفهام: أى لا جند لهم فى الواقع ونفس الأمر قادر على نصرتهم. فليس الكافرون إذن إلا قوما مغرورين مخدوعين، فتكون (إن) نافية بمعنى ليس. وكذا يقال فى الاستفهام الآخر أعنى قوله ﴿أمن هذا الذى يرزقكم﴾ فانه ينتهى عند قوله ﴿رزقه﴾. وقوله ﴿بل لجوا فى عتو ونفور﴾ قام مقام الجواب: كأنه يقول كلا لا أحد غير الله يرزقهم. ولم يذعنوا هم لهـذا الأمر الجلى بل تمـادوا فى تمردهم وكبرهم، وتباعدهم عن قبول الحق، واتباع النبى عليه السلام، وما أتى به من القول الصدق.

[كبه] على وجهه صرعه وقلبه. والرجل الذى انقلب يقال عنه إنه أكَبَّ. فالمُكب إذن هو الذى يعتور مشيه عثار وسقوط من وقت إلى آخر، إما لضعف فى بصره، أو وعورة فى طريقه. وعكسه [السوى] وهو الذى يمشى مستوى القامة، ثابت القـدم. و﴿أهدى﴾ أفعل تفضيل أى أشد هداية وأقرب وصولا إلى حيث يقصد.

والكلام تمثيـل لحالة أولئك الذين وصفهم بالعتو والنفور فى الآية السـابقة مع مقارنتهم بالمؤمنين الذين أذعنوا للحق: قال عن الأولين إنهم تمـادوا فى تمردهم ونفورهم. والمتمرد إذا نفخ الشيطان فى أنفه ضل وعمى عن القصد واعتسف الطريق اعتسافا. وهكذا كان شأن المشركين، فهم كالمـاشى المكب الذى يقع على وجهه فى كل خطوة يخطوها. أما المؤمنون فكانوا كالذى يمشى منتصب القامة فى طريق لاحب: لا صخور فيه ولا عوائر. فأى القبيلين أشد هداية، وأقرب وصولا إلى الغـاية؟؟

إذا كان حال المشركين على ماوصف فى الآية السابقة من ركوب التعاسيف والضلال عن طريق الحق كانوا ملومين أشدّ اللوم، وذلك لأنه تعالى خلق لهم الحواس والمشاعر، ومتعهم بالعقل والمنطق، ويسر لهم وسائل النجاة، وأسباب الهداية، فلم ينتفعوا بشىء من ذلك، ولم يشكروا لله على هذه الوسائل والأسباب، فيستعملوها فيما خلقت لأجله، بل ضلوا وحادوا عن طريق الهدى، إلى طريق الردى.

فقوله ﴿قل﴾ أى يامحمد فى تبكيت أولئك الذين عتوا وتورّطوا فى الضلال: ألم تعلموا أن الله الذى يدعوكم للإيمان ﴿هو الذى أنشأكم﴾ خلقكم وجهزكم بأسباب الرشد والهداية من أسماع وأبصار وأفئدة أى قلوب. فلم صممتم عن المواعظ؟ وعميتم عن الآيات؟ وأعرضتم عن النظر والتفكير؟ لا جرم أنكم تعلمون أن الله فاعل جميع ذلك، لكنكم قوم لا تشكرون، وبنعم الله تكفرون.

والقلة كثيرا ما تستعمل فى كلام العرب ويراد بها عدم الفعل ونفيه من أصله لا أنه يقع على وجه الندور. ومثل له الجاحظ فى كتاب الحيوان (جزء٢ ص٨٣) بقولك "فلان قليل الحياء" قال: وأنت لست تريد أن هناك حياء البتة، فهم يضعون [القليل] فى موضع [ليس] أى فى موضع النفى، ومنه الحديث الشريف "كان صلى الله عليه وسلم يقل اللغو" أى أنه لا يلغو أبدا.

وأراد (بالأفئدة) العقول والمدارك؛ لأن العرب كما يسمون العضو ذا الشكل الصنوبرى قلبا وفؤادا يسمون العقل أعنى القوة المدركة قلبا وفؤادا أيضا، تسمية للحال باسم المحل، ذهابا منهم إلى أن العضو المذكور هو مقر العقل والإدراك. والوحى يخاطب العرب بما ألفوه واعتادوه من أساليب التخاطب بينهم. وهذا كإنزال القرآن بأصل اللسان العربى لأجل أن يفهموا، ولو أنزل أعجميا لكان لهم الحجة. وقد اعترف لهم بذلك القرآن نفسه فى قوله تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته: أأعجمى وعربى؟) أى أيكون القرآن بلغة أعجمية ومحمد الذى أنزل عليه ذلك القرآن عربيا؟ أممكن هذا؟ فانظر كيف أن الله تعالى جعل لهم الحجة على فرض كون القرآن أعجميا. وقال صاحب الصحاح فى مادة [عبقر]: هو موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنة نسبوا إليه كل شىء تعجبوا منه: ثوب عبقرى وبساط عبقرى لما فيه أصباغ ونقوش، وظلم عبقرى ورجل عبقرى، ومنه الحديث "فلم أر عبقريا يفرى فريّه" ثم خاطبهم الله بما تعارفوا فقال (وعبقرى حسان).

وقد أشرنا إلى هذا أيضا فى غير ما موضع من هذا التفسير اهتماما به، وحرصا على فائدته، ولكونه يحل مشاكل كثيرة فى تفسير معانى الوحى الإلهى. قال المفسر الطبرى فى قوله تعالى واصفا حال المعذب المخلد فى جهنم (ثم لا يموت فيها ولا يحيى) — : "قيل ذلك لأن العرب كانوا إذا وصفوا الرجل بوقوعه فى شدة شديدة قالوا [لا هو حى ولا هو ميت] فخاطبهم الله بالذى جرى به ذلك من كلامهم" انتهى قول الطبرى، وقد عزاه إلى طائفة من أهل العلم فى تفسير الآية المذكورة. وقال بعض العلماء فى قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض): إنما نزل هذا فى العرب بناء على عادتهم، وهى أنهم كانوا إذا أخصبوا تحاربوا، وإلى هذا يشير قائلهم:

قوم إذا نبت الربيع بأرضهم   نبتت عداوتهم مع البقل

قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

أمر تعالى نبيه فى الآية السابقة أن يُذَكّر المشركين بما أنعم عليهم من قوى النفس، ومشاعر الحس . ثم ارتقى فى التذكير إلى ما هو الأصل فى كل نعمة ، وأساس كل موهبة : أعنى نعمة الخلق والإيجاد والتكاثر وتمهيد سبل الاستعمار أمام هؤلاء المخلوقين ؛ فكانوا كثيرين متفرقين فى جنبات الأرض .

[والذرْء] الخلق . وهو أيضا التكثير : يقال " ذرأ الشىء " إذا كثّره . ومنه [الذرية] وقد تركت همزتها ، ومعناها النسل الكثير . على أن الذرء إذا ذكر وأريد به المعنى الأول أعنى الخلق كان مرادا به المعنى الثانى وهو الكثرة أيضا ؛ فليس معنى ذرأكم خلقكم فقط ، بل هو أيضا مشوب بمعنى الكثرة ، أى خلقكم وكثركم . ومناط الامتنان على البشر إنما هو التكاثر فى الخلق لا الخلق المجرد ؛ لأنه تعالى لو خلق البشر جماعات قليلة ، ولم يودع نوعهم قوة النمو والتكاثر المفضى إلى الانتشار فى جنبات الأرض وإلى إحيائها — لعدت عليهم العوادى : من قحط ووباء وزلزال ، أو طاردتهم الضوارى : من ضبع ونمر وأسد رئبال ، فهلكوا وبادوا . لكنه تعالى خلقهم وجعلهم يتكاثرون ويتوزعون قبائل وشعوبا تتسابق فى مضمار الحياة ، وتتبارى فى استعمار الأرض ، واستدرار خيراتها ، واستدفاع آفاتها . وهذا هو السر فى قيام مدنيات الأمم ، وارتقاء عمران العالم .

أمّا ختم الآية بقوله ﴿ وإليه تحشرون ﴾ فذلك لأن السورة كلها إنما أنزلت لإثبات الحشر ؛ وتحقيق يوم الحساب ، وحمل أهل مكة المكذبين على التصديق به ، فقد أشار تعالى فى فاتحة هذه السورة إلى أنه تعالى خلق موت البشر وحياتهم لأجل أن يختبر أمرهم ويعرف المطيع من العاصى منهم . ولا تكون نتيجة ذلك إلا إثابة المطيع ومجازاة العاصى فى الدار الآخرة ، فأوّل ما قررته السورة إذن إنما هو تنبيه المشركين إلى الإيمان بتلك الدار . ولما كان القوم مصرين على جحودها واستبعاد حصول العذاب فيها — تضمنت السورة ضروبا من التذكير بنعم الله تعالى على المكذبين ، وأنواعا من الحجج والبراهين على قدرته ، وأنه تعالى لا يعسر عليه إيجاد دار لتعذيب المجرمين ، والتنكيل بالمكذبين . فكان كلما ذكر شيئا من تلك النعم ، وعدّد طائفة من هذه الحجج — عاد فقرر أمر الآخرة ، أو نبه إليها تنبيها . وهكذا حتى آخر السورة .

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

وإن آيات هذه السورة بل آيات سور القرآن بجملتها كشذور الذهب وقد أُلِّف بينها بلحام من المناسبات غاية فى الدقة واللطف . وأقرب مانستشهد به على ذلك قوله تعالى هنا (وإليه تحشرون) فإن هذه الجملة لحام دقيق يصل بين الآيات . وبيان ذلك أنه تعالى لما أراد ختم السورة حسن أن يأتى على ذكر الموضوع الذى أشار إليه فى أولها ، وهو إنكار المشركين للبعث والحساب ، وأنه لم يبق لهم عذر فى النكول والجحود بعد ما مر من آيات الاحتجاج عليهم . فذكّر بالموضوع إذ قال : ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ ، لكنه كيف ينتقل إليه مع أن الكلام الذى قبله فى صدد بيان قدرة الله على خلق البشر وتسليحهم بقوى المشاعر والحواس ؟ انتقل إليه على هذا الأسلوب : عبر عن الخلق بالذرء ، والذرء كما قلنا آنفا فيه معنى النمو والتكاثر ، ففعل [ذرأكم] يشير إلى أن البشر خلقوا متكاثرين ، وانتشروا فى جنبات الأرض ، وتفرقوا فى أربعة أقطارها . هنا تتساءل النفس : هل فى قدرة الله أن يجمع البشر ليوم الحساب وهذا شأنهم من التفرق والانتشار فى الأرض ؟ فقال تعالى فى جواب هذا السؤال : (وإليه تحشرون) فهو قد مهد لذكر الحشر بذكر الذرء ، كما مهد بذكر الحشر لقوله ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟﴾ أى إن هؤلاء المكذبين كانوا يسألون سؤال تعنت واستهزاء : متى يقع هذا الحشر والعذاب الذى تعدوننا به أيها المهددون — النبي وصحابته — إن كنتم صادقين فى تهديدكم ، وتصفون الحقيقة فى وعدكم لنا ووعيدكم ؟

كان المشركون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام عن يوم القيامة الذى كانوا يوعدونهم به . وسؤالهم هذا لم يكن إلا سخرية وتهكما . ولكن الله تعالى أمر نبيه فى قوله﴿قل إنما العلم الخ﴾ أن يجيبهم على سؤالهم ، ويرد عليهم تهكمهم ، بما يفيد الجدّ فى القول ، والإعراض عن اللغو . وإن الردّ عليهم بهذا الأسلوب لأشدّ نكاية ، وأبلغ فى حملهم على الإصغاء والتدبر .

طلبوا أن يعرفوا الوقت الذى يحاسبون فيه على أعمالهم ، فأجيبوا بأنه ليست وظيفة النبي سوى تخويفكم عذابا محقق الوقوع فى ذلك اليوم . وإذ كان الأمر محققاً كان الواجب عليكم الإذعان والتصديق وترك العناد . أما معرفتكم زمن وقوع العذاب فهذا لا دخل له فى التخويف والإنذار

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

علمك بأن القصاص لا بد أن ينالك إذا أذنبت هو الذى يأخذ بحُجْزتك عن الوقوع فى الذنب، فإذا تحققت القصاص بل إذا ظننته ظناً لاق بك أن ترعوى وتكف . أما تساؤلك عن الوقت الذى يقع فيه القصاص فلا يكون لائقا بك ، بل لا يكون من اللازم تعيينه لك ؛ لأن التعيين لغو ، والسؤال عنه مخرقة أو مشاغبة ، أو خروج عن الصدد كما يقولون . وكان رؤساء المشركين يقصدون من وراء هذه المشاغبات تضليل أفكار العامة وضعفاء العقول من أهل مكة ، فيتوهم هؤلاء أن العلم بوقت حلول العذاب شرط للتصديق به ، فلا يعودون يخافون العذاب ، ولا يؤمنون بيوم الحساب . فجاء الوحى رادّا عليهم ، مبطلا حجتهم ، مشيراً إلى أن التصـديق بالعذاب لا يتوقف على معرفة الوقت الذى يقع فيه ذلك العذاب .

[ازدلفوا] و[تزلفوا] اقتربوا بعد أن كانوا متباعدين . و[الزلفى] على وزن [حبلى] بمعنى الازدلاف . ومثل الزلفى ﴿زلفة﴾ على وزان غرفة . والضمير فى (رأوه) يرجع إلى اليوم المتحدّث عنه . وكان الظاهر أن يضع الوصف موضع المصدر فيقول " فلما رأوه مزدلفا " أى مقتربا منهم ، لا (زلفة) أى اقترابا . نعم هذا هو الأصل فى التعبير ، ولكن العدول إلى المصدر كثيرا ما أفاد المبـالغة والتأكيد ؛ فإن قولك " زيد عدل " أبلغ وآكد من قولك " زيد عادل " . والتعبير بزلفة فى الآية يفيد اشتداد قرب يوم القيامة ، وأنه دانٍ من مواقع أبصارهم .

و[سيء] مجهول ساء . والسُّوء القبح ، يستعمل لازماً ومتعدياً . مثال اللازم أن يقال" ساء طبعك " و" ساءت أحوال البلاد " أى صارت سيئة قبيحة . ومثال المتعدى أن تقول " ساءنى منك أن تفعل كذا " و" ساء الناس ظلم حاكمهم " . وتقول فى مجهوله سيئوا . وأصل الكلام فى الآية هكذا "ساء قرب يوم القيامة وجوههم"، أى أن قربه ألقى عليها سواد الحزن وآثار الهم والقلق . ومعنى قوله ﴿سيئت وجوهُ الذين كفروا﴾ حصل لها ذلك . وخص الوجوه بالذكر لأن آثار الانفعالات النفسية من حزنٍ وكمدٍ وقلقٍ إنما تظهر عليها . والدال فى ﴿تدّعون﴾ مشدّدة : من الدعاء بمعنى الطلب والنداء . وقرئ أيضا (تَدْعون) بتخفيف الدال : أى تطلبون وتسألون : كما يقال " تذْكرون وتذَّكرون " بتخفيف الذال وتشديدها . بقى أن فعل [دعا] بمعنى طلب وسأل يتعدّى بنفسه لا بالباء : فيقال " دعا حصول يوم العذاب " ولا يقال " دعا بحصوله " .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

ولكن من لاحظ أنه يقال " أهاب به وهتف به " بمعنى دعاه وناداه لا يشك فى جواز أن يقال " دعا به " إذا ناداه وطلب حضوره . على أنه لامانع من جعل (تدّعون) المشدّدة فى الآية من الادّعاء الذى اسم مصدره دعوى ،وتعديته بالباء يساعد على ذلك ، كأنه يقول : هذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدّعون به ، أى تدّعون ببطلانه ، وتزعمون أنه لا يأتيكم . فها أنتم أولاءِ ترونه زلفة أى قريبا منكم .

والأفعال الثلاثة فى هذه الآية وهى (رأوه)،و(سيئت)،و(قيل) — قد جاءت بلفظ الماضى مع أن المتبادر فيها أن تكون بلفظ المستقبل ؛ لأن يوم القيامة الذى ستقع فيه هذه الأفعال مستقبل لا ماض، لكنه عُدِل بها إلى الماضى جريا على أسلوبٍ من أساليب بلاغة اللغة العربية ، وطريقٍ من طرق التأكيد والمبالغة فيها . كأنه تعالى يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فأنا أُخبر عنها بصيغة الماضى إشارة إلى ذلك . ومثل هذا التعبير كثير الوقوع فى القرآن وفى كلام العرب . وقال أبو مسلم : معنى (فلما رأوه زلفة) فمتى رأوه زلفة .

أصل معنى [أرأيت] [1] الاستفهام عما إذا كان المخاطب رأى أو لم ير؟ ثم صار يستعمل فى مقام [أخبرنى] .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخوف المشركين من عذاب يوم القيامة ، ويهددهم أحيانا بوقوع العذاب عليهم فى دار الدنيا كما وقع بالأمم المكذبة قبلهم . فكانوا هم تارة يحاجونه ويستهزئون به ويشاغبونه ، وآونة باللغو واللغط يقاطعونه . أما هو فكان لا يثنيه شيء عن النصح لهم ، وتبليغ أمر ربه إليهم . وكان هذا الثبات منه فى دعوتهم يبرمهم ويحرج صدورهم ، فكانوا لا يجدون تفريجا لكربتهم سوى الدعاءِ عليه بالهلاك ، أو أن يقول بعضهم لبعض: أطيلوا بالكم عليه فهو لا يلبث أن ينفد عمره ، ويأتيه أجله ، فنستريح منه ومن لجاجته . فالله تعالى فى هذه الآية يشدد عزيمته ، ويلقنه حجته ، ويقول له : قل لأولئك القوم : أخبرونى إذا استجاب الله دعوتكم فىَّ وفى صحابتى فأماتنا ،أو رحمنا فأخّر موتنا إلى أجل — فماذا يُفيدكم ذلك ما دمتم مقيمين على كفركم ؟ هل تحسبون موتنا ينجيكم من العذاب ؟ أو هل ثم من يدخلكم فى جواره فتخلصوا من الهول ومناقشة الحساب ؟ ؟

(١) فى مثل قوله تعالى (أرأيت إن كذب وتولى) ومثله فى خطاب الجمع هنا (أريتم إن أهلكنى)

قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

وهذا طريق ثان من الطرق التى علمها الله نبيه فى الرد على المشركين الذين كانوا يدعون عليه بالهلاك تارة ، وينتظرون موته نافدى الصبر تارة أخرى . فهو يقول له : قل لهم يا محمد إن هذا الإله الذى أدعوكم إلى عبادته والإيمان به رحيم بخلقه ؛ فهو تعالى لم ينزل عليكم الوحى عبثا ، ولم يرسلنى إليكم سدى ، بل فى ذلك كله مصلحة لكم ، وطريق لخلاصكم ، فكيف يجيب دعوتكم فىّ ؛ فيهلكنى أنا ومن معى قبل أن تنفذ مشيئته ، وينتشر دينه ، وتعلو كلمته ، ولا سيما أنَّا قد آمنا به تعالى ؛ فلم نشرك به أحدا ، وتوكلنا عليه وحده ؛ فلم نطلب من غيره معونة ولا مددا . فهل إذا كنا كذلك يكون من الرحمة إهلاكنا ، وإجابة دعوتكم فينا ، وترك العالم على ما ترون من شيوع الكفر والفساد فيه ؟

كلا ! لا يتصور أن يهلكنا الله لأجل دعوتكم ، بل هو بالغ أمره فى خلقه . وستعلمون من منا الذى حاد عن طريق الهداية ، وابتعد عن مواقع الحق ابتعادا ظاهرا . وذلك حينما تتم لنا الغلبة عليكم ، وتعلو كلمة الإسلام فى أرضكم .

﴿غورا﴾ مصدر غار الماء نضب وذهب فى الأرض . وكان الظاهر أن يقول : إن أصبح ماؤكم غائرا . لكنه وصف بالمصدر للمبالغة كما مر بيانه عند قوله (زلفة) . و﴿ماء معين﴾ أى جار على وجه الأرض منظور بالعين ووزنه [مفعول] من عانه إذا نظره بعينه أو [فعيل] من معن الماءُ فى جريه إذا اطرد وتسلسل ، فكان ذلك أعون على نقائه وطهارته ، وتخليصه من الشوائب .

لم يشأ تعالى أن يختم آيات التهديد والإنذار التى خاطب بها المشركين المكذبين بغير كلمة تذكير يستميل بها قلوبهم ، ويستلين عرائكهم ؛ فهو يمن عليهم بالماء الذى جعله يجرى تحت مواقع أبصارهم ، وعلى مقربة من متناول أيديهم . هذا الماء خرج من تحت الأرض وسال على ظاهرها بمحض قدرة الله ومحكم تدبيره ؛ فلو أراد تعالى أن يغيض ذلك الماء ويذهب فى الأرض بحيث لا يمكنهم أن يتوصلوا إليه — فمن يقدر على إيجاد ماء لهم يسق زروعهم ويطفئ عطشهم ؟ وقد مهد لذكر هذه النعمة بذكر الرحمة والتوكل فى الآية السابقة ، فقد ذكر فيها

أنه تعالى رحمن ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته يتوكلون فى أمورهم وسائر تكاليف حياتهم عليه تعالى ؛ فمن رحمته تسهيل أمر السقيا عليهم بخلق الماء وسلكه ينابيع فى الأرض ، ثم خروجه وجريانه على وجهها .

وكما أن الماء الذى هو مادة حياة البشر ، مثال من أمثلة رحمته تعالى — هو أيضا مثال مما يتوكل النبي والصحابة عليه تعالى فى تناوله من مجاريه ، والانتفاع به عن كثب ؛ فلا جرم أن ينتبه المشركون إلى ذلك ، فيتوكلوا على الله تعالى أيضا فى سائر مرافق حياتهم ، كما يتوكل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون ؛ فإن ذلك خير لهم لو كانوا يعلمون .